بدر شاكر السياب المراهق

بقلم محمد الجزائري

(من سفرة الحياة في الموت الى « حالة الرشد »)

السياب بدر شاكر ، كان مراهقا، ومات مراهقا
كيف يبدو الامر لنا .. والسياب ذلك الذي أعطى
غزارة في التجربة الشعرية الفذة ؟
وأين تكمن مراهقة الشاعر في السياب الانسان،
وكيف يبدو هذا المنطق سليما ، من وجهة
النظر النقدية ؟.

ذلكم ما سأحاول بحثه هنا ، ليس عبر معرفتي الشخصية بالسياب؟ كواحد من ابناء مدينتي ، حسب ، بل كشاعر تشكل عبر ظاهرة الشعر الجديد ، والواقع الجديد الذي مر به العراق ، طوال زمن سفرة السياب المؤلمة . والمنتجة في ذات الوقت .

السياب كان مراهقا .. نعم . ومات كذلك !

ومراهقة السياب ، هنا ، هي ثورية الرجل الذي ناضل ضد الشعر ، حين ناضل ضد المجتمع المتخلف ، وضد السلطات ، وضد نفسه !

ثار ضد الحياة الراكدة ، وهو يمتلك تذكرة السفر فيها ، عبر الموت البطيء الحاد الذي لازمه منذ « طفولته الشقية » . ثار ، وهو يستقل عربة من ورق أسود !! ، ويفتح نافذة على نفسه والعالم تنث مطرا ، وتطمح بالكثير من الحزن حتى في صيف الايام الحارة ..

فهل كان السياب مسافرا بلا حواس ، الى عوالم الاخرين ، مذاهبهم ، مدنهم الساحرة ؟ ام كان مسافرا ، بوعي تام ، الى طقوس المرض والموت والمحبة يتفجر داخل نفسه ، وداخل العالم ، ويفجر عبر الالم ، كل بارود الفرح والقتال ؟

السياب ، بدأ مراهقا .. اتعبته سلطة الدولة الملكية ، وأتعبته سلطة عمود الشعر . فحين نشأ مع خضم الاربعينات ، كان العراق يغلي . وكان لا بد له ان يثور ، وان ينتمي من خلال ثورته الى العالم. وكان السياب يثور داخل الثورة ، ينتمي ـ هو الاخر ـ للاخرين ، ثم يعود فيثور لينتمي الى «آخرين» اخرين .. وآخرين ، اخرين ، آخرين .. حتى ينفض عنه «الاخرون» بمجملهم ، فيعود ليعانق نفسه والموت ، في قطار المرض السريع ..

هذا الرجل الشاعر الذي كان يحتسي قدح الشاي الدافيء بيد مرتجفة ، ظل ـ حتى بعد زواجه ـ وألم السنين وصفعات الزمن والاصدقاء ، ينث من عينيه طقوس الحب ـ الكره ، داخل اضواء الطيف الشمسي الذي احب في «انشودة المطر» . فكان يطمح للكثير من الاشياء ، ليس لانه يغير وجه الشعر ويخلع عنه جلده القديم ، حسب .. بل حاول ان يغير ـ مع الاخرين ـ العراق ، ان يسلخ عنه جلد «الغربة» و«الاستلاب» ، فاذا اخذنا حالة «سن الرشد» على اساس انها محطة اتساق بين المرء والعالم والعصر ، يختنق بها الكائن الشاعر ، «حين يندمج في عالم العادات والنظم» الموروثة ، بدلا من «ان يستمر خارج هذا العالم متخذا لنفسه موقفا ثوريا ازاءه ..» ـ كما يقول ستيفن سبندر ـ .. فقد «اندمج الراشدون اليوم في النظام الماثل وخلفوا العالم الانساني وراءهم .. اما هؤلاء الذين يؤكدون اهمية الجنس والهواء الطلق والفنون الخلاقة فهم ثائرون» ـ والسياب احدهم ـ .

كيف ؟

يقول سبندر : هؤلاء ، وللاسباب اعلاه «تبدو فيهم جميعا اعراض المراهقة ، لان المراهقة هي المرحلة التي يكون فيها الفرد اشد ثورة على سلطة الاسرة .. وأحيانا قد تتخذ ثورتهم بالطبع صورة اعتناق مذهب مادي اخر يتعارض مع المذهب السائد .. وقد يكون من الصواب ان نقول ان الشعراء والفنانين الذين لا يبلغون مرحلة الرشد الا في العصور التي تحقق فيها السلطات القيم التي يضمنها فنهم ..» (١) وبما ان السياب لم يحقق له عصره ، ولا السلطة التي عاش تحت ظل سطوتها «القيم التي يضمنها فنه» ، فهو لم يبلغ مرحلة الرشد ، من هذه الزاوية .. لذا ظل يعيش سلسلة من الاعمال الثورية ، سلسلة من اعمال المراهقة ، بمعناها الثوري ..

وقد يكون صحيحا «ان معظم الشعر الحديث هو شعر مراهقة..» بسبب كونه «يثور» ضد التقاليد والعادات والنظم الموروثة ، ولا يحاول (الاتساق) و(التوافق) معها ..

وبدر ، في الاربعينات ، بالذات ، كان الفتى اليافع ، المراهق لحد المرارة ، التحق باضطرام الواقع المجتمعي ، السياسي والفكري والاقتصادي ، في عراق ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ابنا من ابناء معطيات العصر الذي دفع العديد من مفكريه الى الثورة ضد الواقع ، ضد الحرب ، ضد الاسباب التي خلقتها ..

وقد انخرط السياب بوعي المراهق الثائر ، في النضال الجماهيري

---

(١) ستيفن سبندر : «الحياة والشاعر» ـ سلسلة الالف كتاب ـ القاهرة ـ ترجمة مصطفى بدوي مراجعة د. سهير القلماوي .

المنظم ، الذي اكتسح ساحة المعركة ، فبرز السياب ضمن القوى اليسارية الفاعلة والمنظمة لابرز هذه النضالات .. لكن «ضوابط» العمل التنظيمي ، و«مزاجات» الاشخاص ، وطبيعة العمل السري لم تحقق «الاتساق» و«التوافق» بين طبيعة السياب وتركيبه الفكري والسيكولوجي ، وبين مسيرة النضال ومقتضياتها اليومية ... لذا فقد فجر السياب ، على طريق العمل النضالي ، بعض التناقضات الشخصية ، والفكرية ، والشعرية . اثرت في مزاجه التنظيمي وجسدت مراهقته الرافضة للعديد من ضوابط العمل ، وادت به في نهاية المطاف الى استقلال عربات اخرى في قاطرة الحياة .

في البدء ، وعى السياب الفكر الماركسي ـ اللينيني ، ووجد فيه الرضا ، فكرا وحركة جماهير ، فانخرط في العمل الوطني وشكل مع رفاقه التقدميين ، الظاهرة الشعرية الجديدة : «الشعر الحر» في العراق والوطن العربي ، فكان واحدا من رواد هذه الظاهرة . مع ان العديد من دارسي السياب ، اخفقوا في تقييمه عبر فهم «الجوهر والظاهرة» لانهم فهموه وكأنه «ظاهرة فردية» في الشعر والحياة ، ومن هنا يكمن الخطأ .. فمع ان «الجوهر والظاهرة» ـ فلسفيا ـ : «مفهومان يعكسان النواحي المختلفة للاشياء والعمليات في الواقع الموضوعي ، اي ان الجوهر يعبر عما هو اساس في الاشياء ، عن الجانب الداخلي الاكثر اهمية فيها . والظاهرة هي التعبير الظاهري عن الجوهر ..» ولكن ما حدث ، في الغالب ، وما يحدث فعلا ، «ان الظواهر الخارجية لا تعبر عن الجوهر بصورة صحيحة ، او قد تشوهه. فمجرد الملاحظة السطحية البسيطة ترينا كما لو كانت الشمس تدور حول الارض ، في حين تكون الحقيقة عكس ذلك ..» . لذا فقد تم فهم السياب ، احيانا ، بمعزل عن الواقع الموضوعي ، فقد نظر اليه ، وهو يستقل قاطرة الموت ، عبر رؤى الجوهر والظاهرة ، ليس في وحدتهما التي لا تنفصم وفي تناقضهما في ذات الوقت ، بل نظر اليه ، ايضا، وكأنه ظاهرة مقطوعة عن الماضي ، وعن طبيعة تشكيل عناصر الزمن والمجتمع والاحداث . لذا فقد ادى فهم البعض الى اسقاط السياب في مرحلة «حالة الرشد» ، وكأنه كان متساوقا ومتوافقا مع السلطة، ومع العادات ، ومع الموروث السلبي من التقاليد ، اي وكأنه اندمج في « النظام المائل وخلف « العالم الانساني » وراءه . حتى ان البعض فهم السياب كخصم لدود لليسار العراقي ، واسقط هذا الحكم عليه، وتعامل مع شعره على هذا الاساس .

السياب ، لم يكن ظاهرة فردية حين كان مناضلا يؤمن بالماركسية ـ اللينينية ، ولم يكن كذلك بعد ان نبذها . لان السياب ظل في حالة «استلاب» ، كان «غريبا» على الموروث في العلاقات والتقاليد ، لذا فقد ثار ضد غربته، وظل في سلسلة اعماله الرافضة يعمق هذه الغربة ، ويثور ضدها .

فكيف نقيم السياب ، بعد وفاته «غريبا على الخليج» وغريبا في وطنه ؟ وهل هذه «الغربة» تلقائية ، ام انها جزء من الظاهرة العامة التي يعيشها الشاعر والمثقف والانسان في العراق منذ «الحكم الاسود» قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وحتى الان ؟

عام ٢٦ .. وفي جيكور ، ولد السياب ، ومنذ افاق وتامل العالم بعيون مفتحة ، كان يرى بصرة الخصب ، والانهار ، والاشرعة ، والنوارس ، والنخيل .. كان يرى «شباك وفيقة» ، و«منزل الاقنان» في «المعبد الغريقي» و«الشناشيل» . وفي ذات الوقت ، كان يعيش بصرة الميناء المناضل : التظاهرات ، الاضرابات ، الحركة الطلابية والنقابية ، الزخم الممتد من (الفاو) حتى (القرنة) ، من ثانوية البصرة الى ساحات الميناء والسكك وشركة النفط . وفي الثانوية ، وفي الساحات ، وفي الشوارع ، كان يسفح الدم ، وكانت تنمو اسباب الثورة ، وشروطها الموضوعية والذاتية .

وراح السياب يبني هرم شخصيته عبر تصالب وتفاعل الاحداث طالبا في الثانوية ، ثم مهاجرا الى بغداد وطالبا في دار المعلمين العالية ، فيها .. ثم مهاجرا الى الرمادي ومدرسا فيها ، ثم مهاجرا الى الفاقة والعوز : مفصولا وسجينا .. ثم مهاجرا الى الكويت ، والى المستشفيات العديدة ، وعبر ذلك ، مهاجرا الى عوالم الادب العربي والغربي ، المعاصر والقديم .

وعلى قاطرة الالم ، قاطرة الموت ، سافر السياب معانقا حياة الشعر والانسان ، كل ذلك في اطار رفضه للقيود، من البيت والاسرة، الى الحزب ، والمجتمع ، والنظام ، والمرض ، والموت .. والكلمة التقليدية !.

هذا الرفض الثائر ، كان دبدن السياب كمراهق يبحث عن شيء ما يوازن فيه ذاته والعالم ، عبر الكلمة والاخرين والنضال ، لكن دون جدوى .. فقد حاصره المرض حتى الموت دون ان يحقق كل تطلعاته .

في البدء حاول ان يخلق هذه الموازنة ، وتوحيد فهم «الجوهر والظاهرة » في الفعل الثوري ، الكلمة والعمل الجماهيري المنظم ، ثم .. في الكلمة الشاعرة وحدها ، والنضال ضد المرض . فاستغل السياب كل المناسبات ، في البصرة ، ليحقق من خلالها افعاله الثورية .. وحتى المآتم الدينية التي تقام في شهر محرم من كل عام، في ذكرى استشهاد الامام الحسين وواقعة كربلاء ، فيتخذ السياب منها منبرا لبث فكره الثوري متخذا من الحسين مدخلا للثورة التي ينشد ويطمح .

كما كان لا يهمل اي شكل من اشكال العسف والاضطهاد الا ويصور عبره النتائج الحتمية ، ولا يهمل جزئيات الواقع الثوري ، ابدا ، كما نراه في هذه القصيدة : «ام سجين في نقرة السلمان»(٢)

«في قلعة جبلت حجارتها
بدم القلوب وبارد العرق
وتعفن الزمن الحبيس لدى
جدرانها طبقا على طبق
وتلظت الصحراء فاغرة
عنها فم المتثائب القلق
حيث النهار هجيرة ودجى
والليل غاشية من الأرق
قلب أعز من الحياة على
قلبي .. يلوك بقية الزمن ..»

هذه القصيدة ، اهملها ـ مثلا ـ حتى اصحاب السياب ، واهل الاشارة اليها الذين كتبوا عنه وجمعوا آثاره .. ليس لانها غير موجودة ، ولكن لانها واحدة من الاشارات الصريحة التي تدلل على منابع فكر السياب ، ومواد كتاباته ، ومؤثراته . ومن بعد فهي تشكل وجها لمرحلة اختمار نضج السياب فكريا وفنيا ، اي مرحلة انتماء السياب للفكر الماركسي ـ اللينيني .

وهذا الاسقاط المتعمد لقصائد عدة من شعر النضال لدى السياب ، هو ما اشرنا اليه بالحكم الخاطيء على فهم « الجوهر والظاهرة » في حياة الشاعر السياب .. فالسياب حين ينشد على لسان هذه الأم ، وبهذه الحرارة ، فهو يعبر عن رفضه لذلك الواقع العسفي ، ولطرحه البديل الثوري ، فهنا استل السياب حسه الشعري من ركام الثورة المادي والحياتي :

« اني عرفت وقبلي اطلعت
مقل الثكالى من كوى الشار

---

(٢) نشر نص القصيدة الكامل لاول مرة في كتاب غائب طعمه فرمان :« الحكم الاسود في العراق » الصادر عن دار الفكر ـ القاهرة ـ عام ١٩٥٧ .

ان ليس من ولد لوالدة
حتى يجندل كل جزار
باسم السلام فداعبت فمها
خلل الدموع طيوف آذار (٣)

وفي الريف ..

كان السياب مراهقا ايضا . عاشقا وثائرا . حتى اذا تضخم حسه الثوري في المدينة ، بعدئذ ، اتخذ موقفا اكثر حضارية وحدة ، وامتلك اداة للتعبير جديدة ، تنعطف من مواقع المواجهة الصريحة لسلبية ودموية الحكم الارهابي السعيدي الاسود ، الى مواجهة «عمود الشعر» في بعض معطياته ، فكانت «المومس العمياء» و«حفار القبور» و«الاسلحة والاطفال» صرخات ثائر يرفض الكثير ، ويمنح الكثير .. فارضية الوطن لم تمتلك ، آنذاك ، ذاتها بعد ، لتعبر عنها بعالمية في الثقافة والتحرك والتاثير ، ولما تزل ارضنا العربية كذلك ، الا في حدود فعل المقاومة والنضال الذي اكتسب شموله الانساني حين دخله وعى الراي العام العالمي وعمق القناعة فيه ، بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ . لذا فان السياب حاول تخطي هذا التخلف ، عبر حركة اليسار التي تداخلت مع حركة كل التقدميين في العالم ، فانفتح على العالم ، وطرح تجربة الشعر الحديث كبديل عن عمود الشعر . لكن الموقف الرافض ظل يتغير لدى السياب المراهق ، وظل يستبدل جلدا بجلد ، فتحول من موقع الى اخر ، وأخيرا عانق اليوت وازرا باوند وأيدبت ستول والثقافة الغربية بمجملها . فراح يطالع -بالانكليزية- عيون الادب الغربي ، يترجم بعضه متاثرا ، ومطورا في ذات الوقت لادواته التقنية في الشعر ، مكتشفا في الرمز وفي الاسطورة وفي طرائق التناول والتعبير معطيات جديدة اغنى بها شعرنا العربي الحديث بالكثير من الدلالات والانجازات .

ومع ان اروع انجازات السياب الشعرية -باعتقادي- مجموعة «انشودة المطر» . لكن حس الموت والتشاؤم ، في اخريات ايامه ، لم يمنعه من معانقة الحياة مجددا في اغلب قصائد «شناشيل» ابنة الحلبي» ، التي اراها امتدادا طبيعيا لانشودة المطر ، في مرحلة صحو المسافر على قاطرة الموت ، الى الحياة الفضلى .

وحسب تقديري ، فان افق السياب التشاؤمي الذي انطوت عليه قصائد ما يسمى بالفترة الايوبية : المرض والمعاناة والوحدة والتمزق الداخلي .. والصبر !. لم يكن هذا الأفق جديدا على «كون» السياب ، بل انه افق العراق منذ فتح السياب يقظته الشعرية ، فيه .. فكانت تلكم القصائد انعكاسا لواقع تمزق العلاقات بين القوى الوطنية ، والحالة المرضية التي سادت قوى الثورة بعد عام ١٩٥٨ ، الامر الذي عمق يأس السياب فالفى نفسه عاجزا امام ضرورة تغيير بنية الواقع ، وهو في مرضه وعزلته ، بعد ان عجزت القوى الوطنية من ان تلتحم وتوحد قواها لاداء مهمات الثورة ، وتحقيق اهدافها الانسانية .

لذا عاد السياب لاسترجاع صور الماضي ، ولاستعادة الحلم ، للريف الذي حن اليه ، لشباك وفيقه وللشناشيل ، فاضطر ان يرفع صوته من الارض (المادي) الى السماء (الميتافيزيقي) وينشد المطر ، من جديد !

والسياب لم يقف خارج الزمن والاحداث ، مع انه عاش اللعنة داخلها ، والغربة والمرض . فقد القى بنفسه في أتون الصراعات ، فخسر الاصدقاء ورفاق الامس ، والامس القريب ، والامس الاقرب .. لكنه ظل يؤكد ذاته في كل تناقضات المراهق الثائر ، فلم يعانق الموت الا ليترك خلفه حياة حافلة بالشعر والتجربة .

والسياب اختار ، وغير اختياره ، وعاد فاختار ، وعاد ليغير اختياره .. وهو بهذه العمليات حاول ان يخلق معادله الحياتي من الماركسي - اللينيني ، الى صحبة «شعر» و«حوار» . وبعكس اراغون وابلوار اللذين انتقلا من السريالية الى الواقعية كماركسيين - لينينيين ، حصل مع السياب انتقال من (المادي) الى (الميتافيزيقي) . ومع ان بعضهم قد وجد في الموت المسرة : كالبير كامو وهمنغواي ، لكن السياب وجد في الموت التعب ، ومع ان صوته ظل عراقيا وعربيا وانسانيا ، في اغلب قصائده ، لكن ذات المراهق كانت تحاصره على الدوام . فلقد جسد في قصائده العربية عمقنا الانساني .

(فافلة الضياع ، يوم الطفاة الاخير ، الى جميلة بوحيرد ، رسائل من مغيرة ، في المغرب العربي ، بور سعيد .. الخ) .

ومع ذلك فالشاعر يعود لصوت الفجيعة الذاتية الحادة منذ شبابه ، بحثا عن البديل يمحو آثار ومسببات تلك الطفولة الشقية ، التي كانت هي البدء ، في استعادة حلمية لرؤى ذلك الواقع :

«وألقى البرق .. أرقص ظل نافذتي على الغرفة
فذكرني بماض من حياتي كله ألم :
طفولتي الشقية ، والصبى ، وشبابي المفجوع يضطرم..»

(من قصيدة : شناشيل ابنة الجلبي)

وهو هنا ، لم يكن فرديا رغم تأكيده الذات ، ولكن بخصوصية هي في الواقع خصوصية عامة . اذ ان الريف العراقي ، ولا ابالغ ان قلت ريفنا العربي كله ، يزخر بصور المأساة منذ قرون . لذا فالسياب، هنا ، اعطى لتجربته الشقية ذلك البعد الانساني الاشمل . انه يعبر من خلال ذاته عن شريحة اجتماعية كاملة ، يصبو لخلق البديل عن عالمها الشقي ذاك ، بعالم مليء بالمطر والالوان .. فالسياب «يظل يحلم بالهوى والشط والقمر» وهو على فراش المرض في البصرة ولندن والكويت .

وهذا الاحتواء لجزئيات الالم في حياة السياب والمنعكس في شعره ، هو التحام اصيل ، وتواصل تام بين حياة الفرد والملايين . لذا يمكن تلخيص سفرة السياب بهذه الدورة : (الفردي - الجماعي - الفردي) .. وهي شبيهة في المعطى الاخير ، بدورة المجتمع عبر قوانينه وتاريخه ولكن بشكل معكوس :

(لا طبقي - طبقي - لا طبقي)

صحيح ان الفارق بين المشاعيةالبدائية (لا طبقي) وبينالشيوعية المتطورة (لا طبقي) ليس بذات الفارق بين الالم الفردي للسياب -الحياة الاولى- ثم فرديته في اواخرها -الموت في الحياة- الا في الصورة الحضارية التي تشكل الفارق الزمني والتاريخي بين فردية (الاول) وفردية (الاخر) . لكن واقع انعزال السياب عن ساحة العمل المنظم في الربع الاخير من حياته الشعرية لا يعني عزلته عن العالم ، اذ ان السياب كان يخاف العزلة حتى الموت ، ويحب الناس والعلاقات النقية بشكل مفرط وحساس . لذا فان واقع الانسان -الفرد- تشكل عند السياب عبر واقع الانسان -المجتمع- .. ونحن نجد في تطور صورة «جيكور» وحدها نفس هذا النحو مع الظاهرة ، تاريخيا وحضاريا .. فقد بدأ بانسان جيكور - القرية ، عبر غنائيات جيكور الوادعة على ضفاف شط العرب ، ثم عبر جيكور الزنج والقرامطة ، وجيكور - المدينة الرمز ، وجيكور - تموز والقضية الثورية ، ثم جيكور - الحلم والعودة الى الاصول ، واستعادة الماضي عبر حزن المرض .

كتب جبرا ابراهيم جبرا رسالة مؤرخة في ٢٦-١-٦٤ الى بدر شاكر السياب تحدث فيها عن ظاهرة الموت والتقهقر ازاءه في شعر بدر الاخير قائلا :

«... ولكن حسك بالحياة (الذي فاض من قصائدك الى الالاف من قرائك ، حافزا اياهم على الاستزادة من النبض

---

(٣) ص ٦٢ - المصدر السابق .

العنيف تجاه الموت) يجب الا يتقهقر ازاء مرضك ، وان اكن ابدو فاسيا في هذا القول ، لن يستطيع الشاعر ان يتجاهل الموت كموضوع ، والشاعر الكبير بوجه خاص، يتصف بحمل عواطف النقيضين (الحب ـ الكره) للموت.. غير انني اقلق واحزن عندما اراها ـالقصائدـ حلكة من القبر ، وهو ما لا اريده لشعرك الرائع» (٤)

هذا التشخيص لواقع شعر السياب في الربع الاخير من حياته الشعرية ، هو في الواقع ادراك للنتيجة الطبيعية التي تصل بالانسان، الذي ولد ومعه عالم يتنفس جراح الحرب ، عالم تضمخه جراحات الجيل ـ الضحية .. وتطور وهو يعيش ويعي مفارقات العالم حتى حاصره الموت تحت وطأة المرض الشديد ، وحاصرته ظروف العزلة عن الناس وميادين النشاط والاصدقاء ، وهو في ذروة توهجه الشعري.

هذا الركام كان اختزانا لواقع السياب الفتى الذي بدأ «مفجوعا» بشبابه ، يحمل طيبة الارض ونقاوة مياه الشط ، وعصف الريح ، وارتجاف المجاذيف على صفحة الاديم ، ورعشات السعف في غابات النخيل ، وكل صور عرس الطبيعة والحياة في خضم فورات الالم .. وحالة المأساة ، والنضال ، والتناقضات الحادة في مجتمعنا العراقي.

السياب ، اذن ، كان يتوق في مراهقته ، وفي سفرة الالم المضنية الطويلة الى الامساك بالعالم بين يديه ، يشد نفسه الى خيوط القضية فتفلت منه ، او يفلت منها ، ثم يعود اليها ، وهكذا .. منطلقا من وطنه لامته ، للانسانية ، فنجده يسهم عام ١٩٥٦ بالتوقيع على عريضة احتجاج انتصارا لثورة الجزائر ، وبحضر مؤتمر الادباء المنعقد في بلودان ، ويرشح بذات السنة للعمل في اللجنة الوطنية للادباء الثوريين المنبثقة عن الجبهة الوطنية في العراق .

ويستمر نضاله حتى انبثاق ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ، اذ ذاك ، تتعمق خلافاته ـالتي بدات قبيل الثورةـ مع القوى الوطنية التي عاش نضجه الفكري والشعري في كنف تجربتها طوال عشر سنوات تقريبا ، فيتحول من فئة الى اخرى ، حتى وافاه الاجل في مساء ٢٤ كانون الاول ١٩٦٤ في المستشفى الاميري بالكويت ، بعد ان ترك وراءه تراثا شعريا تستقطبه دواوينه المنشورة : «ازهار ذابلة» و«اساطير» و«انشودة المطر» و«المعبد الغريق» و«منزل الاقنان» وشناشيل ابنة الجلبي» ثم .. « اقبال » (٥) .

اذن .. هل كان منشأ الرفض الثوري عند السياب هو السياسة وحدها ؟

ام الحب ايضا ؟ بل هل كان الحب ، قبل السياسة .. الافراد قبل الجماعات ؟ هذا السؤال يطرح نفسه بالحاح خاصة لمن يعرف السياب جيدا ، فلقد كان لتكوين السياب الجسدي ، ومواقف معينة في حياته ، الاثر العميق في نفسه . اذ ود لو تحبه امرأة ، امرأة واحدة كما يريد ، هو الذي احب العالم ، واحب شاعرة ما ، فلم تحبه، واحب غيرها وغيرها ، حتى بات يشك في حب زوجته له ، ويعتبره عطفا او لعله الاشفاق عليه :

«وما من عادتي نكران ماضي الذي كانا
ولكن .. كل من احببت قبلك ما احبوني
ولا عطفوا علي .. عشقت سبعا لكن أحيانا
ترف شعورهن علي ، تحملني الى الصين»

وفي قصيدته «احبيني» هذه ، ينتقل الشاعر لتصوير حبيباته ، فواحدة باعته «بمافون لاجل المال» و«تلك لانها في العمر اكبر» وتلك عافته «الى قصر وسيارة» و«تلك وزوجها عبدا مظاهر» و«تلك شاعرته التي كانت له الدنيا وما فيها .. وآخرهن :

«آه .. زوجتي قدري .. أكان الداء
ليقعدني كأني ميت سكران لولاها
وهانا .. كل من أحببت قبلك ما احبوني
وانت ؟
لعله الاشفاق !!»

وهذه الظاهرة لازمت بدرا منذ باكورة نتاجه الشعري ، اذ ان اخفاقه في ان ينال حب واحدة من النساء له ، لا لشعره وحده ، تجسد حتى في حسده لديوان شعره «اساطير» :

« يا ليتني اصبحت ديواني
لأمر من صدر الى ثان
قد بت من حسد اقول له
يا ليت من تهواك تهواني
الك الكؤوس ولي ثمالتها
ولك الخلود وانني فان »

وهكذا نجد ان عقدة السياب في فشله بالحب جاءت من الافراد، وجعلته يصطدم حتى بالفئات السياسية التي انتمى اليها . فقد كان يبحث عن نقاء خاص ومزاج أخص يعامل بهما في العلاقات اليومية. وكانت هذه المسائل اقوى تاثيرا عليه من الضوابط والتاكتيكات السياسية . وهذه العقدة هي اعمق ما اغنى حسه وأرهفه ، وعمقت رؤاه ومعاناته ، وجعلته يثابر البحث والتقصي عن التعويض الانساني، والبديل الذي يحقق له تطلعاته وطموحه . وعبر سفره بين الناس والفئات والمعتقدات وأسرة المرضى والازمات ، عاد من جديد الى بيته، ففي زوجته وجد الانثى التي «تاخذ وتعطي» وهو أزاءها يحس ان له وطنا ، حين يحس ان له بيتا وحبا ..

وحنين بدر الى وطنه كبير ، حتى حين كان داخل الوطن !.. فكيف وهو في لندن والكويت ـمثلاـ ؟ لقد كان يحس من خلال حروف عربية تنبض بها رسائل زوجته له . ان هذه الحروف هي المصباح الوحيد الذي يضيء له العالم من خلال ليل المرض والعزلة في لندن ..

وفي قصيدته : «في انتظار رسالة» نلاحظ تزاحم تلك الصور ، بعرس من الانغام ، وهو ـفيهاـ يبث حتى حاجته البيولوجية الى زوجته :

«وكأن جسمك زورق الحب المحمل بالطيوب
والدفء .. »

فالدفء ، هو العنصر الذي افتقده السياب ، عبر ترحاله الطويل ، على قطار الالم والحزن والموت . ومن هنا كان يسعى لتحقيقه حسيا في الجسد وفي الانثى . في تطابق موضوعي بالصور ، الى الوطن الأعم والاكبر :

«أواه ، ما احلاك نام النور فيك ونمت فيه
والليل ماء والنباح ..
مثل الحصى ينداح فيه ، وأنت اول واردبه ..»

حتى يقول :

«هو الصيف يلثم شط العرب
بغيماته ، ذاب فيها القمر
وتوشك تسبح بيض النجوم لولا برودة ماء النهر
وهف شراع لاضلاعه في الهواء اصطفاق
وغنى مغن وراء النخيل ،
يغمغم : «يا ليل طال السهر
وطال الفراق ! »
كان جميع قلوب العراق
تريد تنادي انهمار المطر .. »

وهذا التكثيف الرائع للتطلع النقي ، ولانهمار المطر ، ليس من زاوية النفع الفردي الخاص ، بل من زاوية «قلوب العراق» كلها ،

---

(٤) ملف «مجلة الاذاعة والتلفزيون» الذي اعده ماجد السامرائي وصدر بمناسبة انعقاد المؤتمر السابع للادباء العرب ومهرجان الشعر التاسع في بغداد من ١٩ ـ ٢٧) نيسان ١٩٦٩ .

(٥) اصدرت وزارة الاعلام العراقية ديوانا جديدا يضم قصائد غير منشورة للشاعر بعنوان «قيثارة الريح» وذلك بمناسبة احتفالاتها بالذكرى السادسة لوفاة الشاعر .

يعطي عنصر الايجاب في تطلعات بدر ، حتى وهو على فراش الموت ، بالحياة التي يحلم ، وبانهمار المطر ..

وهو هنا يعود الى صفاء «انشودة المطر» ، فالمطر يظل عنـــد السياب معنى للتطلع ورمز الاماني ، والربيع والامل ، والعطـــاء والمستقبل الذي يتمنى السياب للعراق . فالمطر عند السياب يتخذ دلالة قوية وبعدا اقوى في انفتاحه على المستقبل المنشود الذي يرى السياب فيه الحياة الفضلى ، والتي تحقق له ولغيره من المبدعيـــن الوصول الى حالة الرشد .

السياب ، هنا ، تعمق معنى «الجوهر والظاهرة» ايضا ، فـــي دلالات الاشياء المادية وانعكاسها على الوضع النفسي والديني للمجتمع. ولان السياب ابن الريف فقد غنى المطر وناشده ، وهو على فـــراش المرض بلندن . فالسياب كلما حاقت به المصائب تطلع الى «المطـــر» يناشده الانهمار . ولا غرابة في ذلك فكل اهل الريف في العراق ، ومنذ عصور قديمة ينظرون للمطر نظرة التقديس ، فهم يعدون لـــه العدة ويخططون ـ على ضوء نزوله ـ مستقبلهم ، وبعضهم راح يكرس له الطقوس والاحتفالات الدينية والاعياد الخاصة ، فالمطر هو الخلاص. وعند السياب يتشكل نفس المعنى ، لذا يخرج الصوت حارا :

«كأن جميع قلوب العراق
تنادي تريد انهمار المطر»

اذن .. لقد احب السياب وطنه وتمنى له الخير العميم دوما، واحب السياب نفسه وتمنى لو يحب دوما . وكم ترجع صدى حبه من خلال قصائده ، وهو يجمع ـ على سبيل المثال ـ في ديوانه «المعبـــد الغريق» ـ وحده ـ اغلب الصور عن حبه لمدينته البصرة ، وكأنه يطالب الاخرين ان يمنحوها محض حبهم ، وعبرها يمنحونه الحب ذاته . فقد كان في تلكم الفترة «١٩٦٢ ـ حين صدور الديوان» وبعدها ، فـــي البصرة ، «غريبا» ايضا ، بعيدا عن الوظيفة بسبب المـــرض تارة ، وبسبب السياسة تارة اخرى ، وحين عمل في مصلحة الموانـــىء العراقية ، فتنقله ظل محدودا بين البيت والدائرة من ناحية اخرى ، والسياب يؤكد ذلك بنفسه في رسالة بعثها من المغرب في ٢٤ـ١٠ـ٦٣ الى «آمال ونعوس» جاء فيها :

«اكثر ما يضايقني في مرضي انه صيرني رهيـــن محبس البيت لا اغادره الا بعد عودتي اليه من الدائرة القريبة كل القرب من داري والمجهزة بسيارات تنقل موظفيها . واذا كان الامر كذلك فمن اين تاتي التجارب لكتابة قصائـــد جديـدة ؟. »

والحق ان السياب حتى قبل هذه الفترة كان يعاني من النـاس والعزلة ، وفي (مطعم حداد) في البصرة ، كان جالسا مرة ، يحتسي الشاي ، وعلى طاولته بضعة كتب انجليزية ، لاليـــوت وغيره .. وقصاصات ورق ظهرت حواشيها من داخل هذه الكتب ، سئـــل السياب : كيف حال الشعر ؟

اجاب : كما ترى .. انني متقطع الانفاس احس بالاختناق وبالضيق ولم تتوافر لي الفرصة لاتمام قصائدي .

وقلب القصاصات ، كانت بدايات «المعبد الغريق» وقصائد اخرى قـال عنهـا :

ـ بدات ببعضها منذ اشهر ، ولم انته منها ، مشكلتي انني ابدا بالقصيدة ولا انتهي منها .

كان السياب في تلكم الايام ، وتلكم المرحلة ، احوج ما يكون الى صديق يلازمه . دخلت مرة مقر جريدة «نداء الاهالي» ـ مقر الحزب الوطني الديمقراطي فرع البصرة ـ آنذاك ، فكان السياب يتحـــدث بالم وحدة على فئة سياسية معينة ، وبعد نقاش طويل هـــدأت ثائرته، اذ كان يحمل الما متراكما وعنيفا من بعض التسلطات ، وتحضرنـــي العديد من المواقف التي اثرت فيه ، ليس هنا مجال ذكرها .. حتـى وصلت الحال بالسياب الى كتابة مذكرات سياسية هبط فيها الـــى مستوى السباب على انتماءاته السابقة والحزب الذي كان منخرطا في صفوفـه .

وارهقت الايام صحة السياب ، وارهقته الظروف ، كذلك الناس فداهمه المرض ، دون رحمة ، وكان قد سافر الى لبنان ترافقه عفيلته للمعالجة فانفق المنحة التي استحصلها له لفيف من ادباء بيروت، كما انفق المنحة التي اعطته اياها الحكومة العراقية آنذاك ، بعدها سافر الى روما ليمثل مجلة شعر عام ١٩٦١ في مؤتمر الادب العربي هناك ، ومن ثم ليتمم علاجه في لندن .. واستمرت به الحال ، هكذا ، حتى عام ٦٢ و٦٣ حيث عاد ليرقد في مستشفى الموانيء ، ويغادر بعدهـــا الى المستشفى الاميري في الكويت ...

وفي بهجة الاحتفالات بعيد الميلاد المجيد ، هز المحافل الادبية نبـأ وفاة بدر شاكر السياب ، الذي كان قد تنبأ نهايته فسجل في ديوان «المعبد الغريق» : «الوصية» وهي حس انسان يعاني من مرض جسده، وجسد مجتمعه .. ومع انه كتبها لزوجته ولطفله الصارخ في رقاده : « ابي » لكنه في الواقع كتبها تجسيدا لسفرة الحياة فـي الموت التـي احس نهايتها :

«لو ان عوليس وقد عاد الى داره
صاحت به الالهة الحاقدة المدمره
ان ينشر الشراع ، ان يضل في بحاره
دون يقين ان يعود في غد لداره
ما خضه النذير والهواجس »

السياب ، هنا ، يتقمص الرمز ليعبر من خلالـــه عن نفسه ، تاريخيا ، فيتمثل نفسه «عوليس» وهو يعود لداره متحديا رغبـــة «الالهة» التي تريد له الاستيطان في الخارج ..

ومن خلال هذه المعادلة الشعرية التي يطرحها السياب ، نجـده يضع في اذهاننا بديلا من الصراع بينه وبين قوى المرض والمـــوت وعوامل الوجود والوضع القائم ، والعودة الى الاهـــل والدار ، اي العودة لقضيته السياسية ووطنه وشعبه وأمته .. لكنه حتى فـــي «الوصية» يخاف من «خبابة صفراء» هي رؤى الموت التي تجسدت له بوضوح يوما بعد يوم ، هذه الرؤى هي الخوف من ظلام المستقبل ، والشاعر انسان احب الحياة وغناها ، لذا نجده يطرح كل جذور خوفه وقلقـه :

«واخاف ان ازلق من غيبوبة التخدير ..
الى بحار ما لها من مرسى
وما استطاع سندباد حين امسى
فيهن ان يعود ..
للعود والشراب والزهور ..»

وحين يقف نداؤه لزوجته لتكون لابنه اما وأبا ، يتقطع صوتـه الحـــار :

و«أرحمي نحيبه ..
وعلميه ان يذبل القلب لليتيم والفقير
وعلميـه .. »

وهنا يداهم الموت السياب . حتى وهو يتلو «الوصية» فيصور لحظاته الاخيرة :

«... ظلمة النعاس
اهدابها تمس من عيوني الغريبه
في البلد الغريب في سريري
فترفع اللهيب عن ضميري
لا تحزني ان مت اي باس
ان يحطم الناي ويبقى لحنه حتى غدي ؟
لا تبعدي
لا تبعدي
لا .... »

ويصمت السياب ..

لكن صوته الحار ، سيظل قويا ومؤثرا في الاجيال وفي الزمـن الاتي ، وان تحطم الناي ، فسوف يظل اللحن يترجع في الغد ، وعبر كل النفوس ..

بغداد

محمد الجزائري